

التاريخ الديني لتطوان وشمال المغرب المعاصر، من الحسن حجاج، إلى العربي الخطيب: حاجتنا إلى نشر المذكرات واليوميات

د. جعفر ابن الحاج السلمي
كلية الآداب - تطوان

مقدمة:

يمكننا أن نقول، وفي اطمئنان بالغ، إن التاريخ الديني للمغرب المعاصر لما يكتب ولما يبحث فيه، ولما تصدر في موضوعه أبحاث جدية. وتكمن المفارقة في هذا الصدد، في كون القرن الرابع عشر الهجري، قرنا قريب العهد منا، ويفترض فيه من حيث المبدأ، أن يكون أمره أوضح، والطريق إليه أيسر، بالنظر إلى قرب العهد.

لاكن يظهر أن الواقع غير هذا، فما نشر من مصادره ككتب التراجم والتاريخ، ومن تراثه الديني، شيء قليل بالنسبة إلى ما أنتجه أو عرفه المغرب من تحولات عميقة، وصراعات كبيرة.

والواقع أن أكثر ما هو متوفر في يد الباحث عن حقيقة تاريخ المغرب الديني في القرن الرابع عشر، في صورة مقالات متفرقة في المجلات أو الصحف، وتقل فيه الكتب والواقع كذلك، أن أكثر هذا التراث الصحفي، إنما يخص مغرب الإستقلال.

أما مغرب الحماية، وما قبل الحماية، وهو الأهم في رصد التحولات الدينية الإسلامية عند نشأتها، فالفجوات والثغرات فيه كثيرة؛ تجعل رصده واستطلاعه وتوثيقه أمرا غير ميسور ولا مضمون دائما.

إن السؤال الكبير الذي يطرح نفسه بالضرورة في القرن الرابع عشر، هو كيف ولماذا دخلت وظهرت واستقرت في المغرب، الذي عاش بثلاثيته المذهبية المقدسة قرونا طويلة، الأشعرية في العقيدة والمالكية في الفقه، والجنيدية بمختلف طرائقها، مذاهب ظهرت في المغرب، متأثرة بالمشرق أو مندمجة فيه، وعلى يد علماء مغاربة، وعملت بحكم بنيتها الفكرية، على تقويض الثلاثية القديمة، وتعويضها بفكر جديد لا عهد لأهل المغرب الأقصى، تسمى بالسلفية والإصلاحية، والعمل بالدليل، وحتى بالاجتهاد المطلق.

لن يسعنا الجواب على هذا الإشكال التاريخي الكبير، بالنظر إلى سعته، وحاجته إلى الرصد الطويل والعريض لأعلام كبار وصغار، وحركاتهم

ومؤلفاتهم ومقالاتهم ومجلاتهم، على امتداد المغرب، وعلى امتداد قرن بأكمله. ولاكننا سوف نقصر الكلام على تطوان وتحولاتها الدينية، باعتبارها مدينة عرفت هذه التحولات الدينية مبكراً، وساهمت فيها.

ويظهر أن هذه التحولات الدينية في تطوان، قد مرت بمراحل وإن كان لها قواسم مشتركة.

1- المرحلة الأولى: مرحلة المخاض الأول. وهي مرحلة ما قبل الحماية. وأهم من يمثلها في تطوان، الحسن حجاج. (- 1331 هـ).

قال عنه أبو العباس، أحمد الرهوني، (- 1373 هـ)، وهو معاصره: "أعجوبة الزمان، في الحفظ وعدم النسيان، أبو علي، الحاج الحسن بن أحمد حجاج.

كان رحمه الله، أحفظ أهل زمانه، مولعا بمطالعة كتب التفسير، وخصوصا روح البيان، وكتب الحديث والتاريخ والتصوف، والجرائد العصرية. وكل ما يطالعه يملئه باللفظ. فكان يسرد مسودات روح البيان عن ظهر قلب، كأنه يقرأ الفاتحة. وكان جهينة الأخبار القديمة والعصر، داهية في السياسة، فوضوي المنزع، ثوري المشرع، مائلا لقلب الأحوال الحاضرة، كيفما كان المأل، صادعا بالحق، قوالا بما في ضميره، من غير هيبة لأحد ...

ولما ورد تطوان، رشح محتسبا، فأظهر سيرة العدل، وتغيير المناكر بيده، حتى سئم الناس ذلك، وضجوا منه ... لكراهة العامة للحق وأهله، فأعفى منها، ولزم حالته التي نشأ عليها، من ملازمة الجماعة، والذكر والمطالعة"¹²³. لنسجل في البدء ما يأتي:

1- إن رجال التغيير الديني الأوائل، وهم الذين أحبوا أن يسموا أنفسهم "سلفيين"، كانوا إما أفرادا عاشوا في المشرق، كالسنوسي، نزيل طنجة، وأبي شعيب الدكالي، أو قوما تتبعوا الحركات الفكرية المشرقية، فاندمجوا معها، أو قوما جمعوا بين الأمرين: التتبع والرحلة، بل قل: قادمهم التتبع إلى التشوف فالرحلة.

لم يرحل الحسن حجاج التطواني (1331 هـ) إلى المشرق. لكن عكف على المطبوعات المشرقية، ولا سيما على "كتب الحديث والتاريخ والتصوف، والجرائد العصرية". بل حفظ مسودات روح البيان، في تفسير القرءان، لإسماعيل حقي التركي. وكان هاذا العكوف في نظرنا، تعويضا عن نقص فادح حسبه رجال الحركة السلفية الأوائل، في برامج التعليم الديني العتيق، وكان مدعاة لنقدهم الشديد له.

¹²³ - عمدة الراوين في تاريخ تطاوين، لأبي العباس، أحمد الرهوني التطواني. (-1373هـ) (مخطوط يعمل على تحقيقه كاتب هذا البحث): 12/7.

2 - نشأت هذه الحركة، مرتبطة بالفكر الصوفي، ممارسة ومطالعة، باعتبار التصوف مظهرا كبيرا للفرد المتدين، دون أن ترفضه بالكلية، كما صنعت بعض شعبها بعدنذ، وبالفكر التاريخي، باعتبار التاريخ مرآة للهوية ومدخلا إلى فهمها، وتعويضا عن الحاضر البائس، وأنموذجا يقتدى في عملية البحث عن مستقبل أفضل.

3 - نشأت هاذة الحركة، مرتبطة بالصحافة، اطلاعا على ما جريات العالم، أولا، ثم تعبيرا عنها، ومنيرا لدعوتها للنخبة المثقفة.

4 - نشأت هاذة الحركة، مرتبطة بإشكال الواقع؛ تحاول أن تتدخل فيه مباشرة، وباليد، لتحقيق مكاسبها، ومن داخل الوظيفة الشرعية. لآكن ضغط الواقع، أجبرها على التراجع، وإقرار سياسة العمل الطويل البطيء، وإعداد الأجيال، واقتناص الفرص.

وإذا كان الحسن حجاج، "فوضوي المنزع، ثوري المشرع"، بتعبير الرهوني، فإن مدينة تطوان، بعقليتها الأندلسية المحافظة الموروثة، وزواياها الصوفية النشيطة، ولاسيما الزاوية الريسونية، بزعمة شيخها سيدي عبد السلام ابن ريسون، (- 1299 هـ) ذات النفوذ الواسع في تطوان وقبائل الجبل، والزاوية الحراقية، بزعمة شيخها سيدي إدريس الحراق، (- 1353 هـ) لم تكن لتقبل التغيير الثوري، ولا منهج الحسن حجاج. فكان أن "لزم حالته التي نشأ عليها، من ملازمة الجماعة، والذكر والمطالعة".

4 - المرحلة الثانية: المرحلة الإصلاحية المنارية الوطنية:

كانت المرحلة الأولى أقرب إلى الفكر الفردي، والعمل الفردي، أو هاذما نعلمه عنها، أو هاذما ما توفره المصادر الميسورة من معلومات. أما هاذة المرحلة، فهي أقرب إلى الجماعة، وإلى بلورة فكر سلفي إصلاحي جديد بالتدريج؛ لا عهد لتطوان به.

أ - الحاج عبد السلام بنونة (- 1353 هـ) محتسبا في تطوان:¹²⁴

ما أن أعلنت الحماية الإسبانية على تطوان، ونصبت الحكومة الخليفية، بعدما اختير مولاي المهدي خليفة عن السلطان، حتى صار لشمال المغرب، وعاصمته تطوان، واقع تاريخي جديد، هو واقع التجزئة السياسية الفعلية، والارتباط الرمزي والظاهري بباقي أجزاء المغرب.

وما لبث الحاج عبد السلام بنونة، وهو في عفتوان الشباب، أن ولي محتسبا على عاصمة الخلافة. فانطلق يطبق ما يشبه البرنامج المستعجل للحركة السلفية، أي إنقاذ الإيمان والتوحيد، بين العامة، وإقصاء " الطوائف

¹²⁴ - انظر عن نشاطه السلفي، وتحديه "للطوائف الضالة"، كتاب: خمسون سنة في صحبة آل بنونة، للتهامي الوزاني. (مخطوط).

الضالة"، ذات البعد الوثني، عن التأثير في العامة. أحرق كتب السحر علانية، وتحدى الطائفة الكناوية علانية في ساحة الفدان، أن تستعدي عليه عفاريته، كما هددته، بعدما منع مواسمها وليلاتها. كما قام بإصلاحات جزئية أخرى.

لاكن ما لبث أن سحب منه منصب الحسبة، فتوقف تأثيره، و"رجعت هيف إلى أديانها". ثم رأى أن تكوين الأجيال في المدارس، داخل المغرب وخارجه، وتزويج العمل الديني السلفي بالعمل الوطني، أولى وأجدى نفعا من التغيير بالحسبة، ومقاومة الطريقة الحراقية، والطائفة الكناوية.¹²⁵

ب - العربي الخطيب¹²⁶، (1304 - 1400 هـ) داعية إصلاحيا مناريا: عندما كانت فاس تضطرم بنشاط الحزب الوطني فيها، بزعامة شيخ الطريقة الكتانية، محمد بن عبد الكبير الكتاني، كان العربي الخطيب، الطالب التطواني يدرس في القرويين، ويلزم شيخه الكتاني، ويعرض بعض الإعراض عن شروح الفقه وحواشيه ومختصراته، ويميل إلى قراءة الفتوحات المكية. وهو ما أنكره عليه رفاقه في الدراسة، كمحمد المرير.

كان هاذا الطالب، في مبدأ أمره، يبحث عن نفسه، بالاتصال بـ "الرجال الكبار". يقول عن نفسه: "ولما كنت أجالس رجالا كبارا كسيدي الحسن حجاج، الذي كان منكبا على مطالعة كتب التفسير.

وكذلك الصوفي الزاهد، سيدي محمد زيوزيو، الذي كان بارزا في الطائفة الدرقاوية بمواهب فريدة في حل مشاكل التوحيد، فكنت أسرد له الفتوحات للحاتمي، وأنا ما زلت في المكتب القراءني.

وأستاذي في المكتب القراءني، هو الفقيه عبد السلام أهرار. وكان صوفيا يصطفييني من بين طلبته بالكلام في التصوف"¹²⁷.

وعندما حل بفاس، تأثر بما كان في فاس من غليان، فاتصل بالشيخ محمد بن عبد الكبير الكتاني (- 1327 هـ) ولازمه "في زاويته وبيته.¹²⁸ حتى إن شيخه استأمنه على وثائقه.¹²⁹

¹²⁵ - انظر في هاذا كتاب: أب الحركة الوطنية، الحاج عبد السلام بنونة.

¹²⁶ - ترجمته في: إسعاف الإخوان الراغبين، بترجم ثلة من علماء المغرب المعاصرين، لمحمد بن الفاطمي ابن الحاج، (1413 هـ)، (مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء. 1412 هـ)، وكتاب " محمد العربي الخطيب، رائد الصحافة في المغرب"، لابنه الأستاذ السيد إسماعيل. (منشورات جمعية البعث الإسلامي. 1415 هـ 1994م).

¹²⁷ - محمد العربي الخطيب. ص. 14. (نقلا عن مذكراته. ولم نطلع عليها. وإنما أحسنا بقيمتها، من خلال نقول ابنه ذ. إسماعيل منها).

¹²⁸ - محمد العربي الخطيب. ص. 24 - 25.

¹²⁹ - محمد العربي الخطيب: 25. وقد حدثنا ابنه ذ. إسماعيل، أنه أحرقها كلها خوفا من المخزن، حينما قبض على شيخه، وهو بمدينة فاس. وكانت عبارة عن رسائل وصحف.

ويظهر أن دعوة أبي شعيب الدكالي لم تؤثر فيه مباشرة وقتئذ، وإن كان قد درس عليه¹³⁰. ولاشك في أن نكبة الشيخ الوطني الشهيرة، جعلته يعيد حساباته. ولما رجع إلى تطوان، وقد امتلأ وطابه من العلوم، كان لتأثير المطبوعات المشرقية الإصلاحية في نفسه أن صار ذا صلة بالشيخ رشيد رضا،¹³¹ عززتها علاقة قريبه الراوية لتاريخ تطوان، علال الخطيب، الذي أقام في مصر زمنا قصيرا، وكان على اتصال مستمر بمجلة المنار، والشيخ رشيد رضا¹³². (- 1356 هـ) وكان هذا ما جعله يقرر أن يلتحق بدار الدعوة في القاهرة، عام 1330 هـ، 1912م، التي كان يشرف عليها رشيد رضا، ويمكث في أرض الكنانة ثلاث سنين.

رجع العربي الخطيب من مصر، فوجد المغرب قد جزئ، ووجد تحولات سياسية تجري في شمال المغرب، ولاسيما تطوان. فكان عليه أن يساهم في هذا التحول، على طريقته.

اشتغل أولا تاجرا وعدلا لكسب عيشه. ثم درس في المدرسة العربية الإسبانية بتطوان، فكان من أوائل من درس بها. ثم التحق بالمجمع العلمي، وهو أعلى هيئة ثقافية في شمال المغرب، وأولها. كما اشتغل بالعمل الصحافي في جريدة الإصلاح. فكان رئيس تحريرها، عام 1335 هـ 1917م، وفيها عبر عن آرائه وأمانيه الإصلاحية. وعلى صفحات جريدة الإصلاح، هاجم الطريقة والبدع.

ولاشك في أن الهجوم على الطرق الصوفية، كان من شأنه أن يغضب شيوخها، وأن الإسراف في الهجوم على البدع، كان من شأنه أن يغضب العلماء الذين لا يرون رأيه فيه.

ثم حاول أن يكون جمعية وطنية يعتضد بها، فلم ينجح، لأن الظروف لم تكن مهيأة. وضافت به الحال في تطوان، حتى اضطر إلى الهجرة إلى الشاوية، عام 1342 هـ 1924م، فكان في مهجره إلى المنفى أقرب، فلم يعد إلى تطوان، إلا في عام 1351 - 1933، بعد تسع سنوات من الهجرة في جنوب المغرب. وقد أجمل ابنه ومؤرخه الأستاذ السيد إسماعيل، برنامجه الإصلاحي فيما يلي:

"دعا إلى الرجوع لعقيدة السلف، ولاكتفاء بما ورد في القرآن والسنة.
دعا للعمل بالدليل، واستنباط الفقه من المصدرين الأساسيين.
دعا إلى إخلاص العبودية لله، وبالتالي فقد شنع على عباد القبور.

130 - محمد العربي الخطيب: 28.

131 - ص. 30.

132 - محمد العربي الخطيب. ص. 30. ص. 31. (نقلا عن عائلات تطوان، لمحمد داوود).

دعا إلى تصحيح مفهوم الولاية.
دعا إلى إشاعة اللغة العربية، باستعمالها في أوسع المجالات، خاصة في مخاطبة المتقنين فيما بينهم".¹³³

كانت عودته إلى تطوان مدعاة إلى تغيير جزئي في مسيرته. فبدلاً من الاشتغال بالصحافة، وجعلها منيراً لأرائه ودعوته، والتدريس بالمدرسة العربية الإسبانية، التحق بالمعهد الديني أستاذًا، وصار يدرس علم الكلام، على الطريقة السلفية. ولما كان الشأن في تدريس العلوم وقتئذ، أن تدرس على المذهب الأشعري، في منظومات وشروح، فقد اتجه إلى نظم الأراجيز في التوحيد، لسد الفراغ. ودام مدرسا إلى ما بعد الاستقلال، مع الاهتمام بتفسير القرآن.

بيد أنه يظهر أن الأحداث قد تجاوزته ابتداء من استقلال المغرب، على الأقل، لعلو سنه، فلازم بيته، وخويصة نفسه، واشتغل بمطالعة التفسير، ولاسيما تفسير سيد قطب، ومتابعة دروس الوعظ في المساجد مع الاجتماع الدوري بنخبة من أصحابه وتلامذته.¹³⁴

وقد تعزز موقفه الفكري بصدور مجلة الإرشاد الديني بتطوان، عام 1357 - 1939، التي أصدرها رجل من طينته، هو محمد الطنجي¹³⁵، الذي جعل من مجلته: "مجلة إسلامية، تخدم الإسلام بروح سلفية، يؤيدها السنيون المخلصون لدينهم ... لأنها المجلة الأولى من نوعها في المغرب، التي ستعنى عناية كبيرة بالناحية الدينية ..."¹³⁶

وعبرت عن البرنامج الفكري للخطيب، وعملت على تطويره. وهاذه المجلة ومرحلتها ورجالها وفكرها تحتاج إلى وقفة خاصة.

وإذا كانت هاذي المجلة أقرب ما تكون إلى فكره، فمن الغريب ألا نجد له فيها كتابات. وهاذا يستدعي التساؤل عن طبيعة العلاقات التي كانت تجمعها بالشباب السلفي الوطني المتوثب، المنتظم في حزب الإصلاح الوطني، وعن موقعه في حركتهم.

وإذا كنا نتساءل عن طبيعة هاذي العلاقة، فإننا نتساءل أيضا عن صدى حضور د. تقي الدين الهلالي (- 1407هـ)¹³⁷ إلى تطوان، ونشره لدعوته

¹³³ - محمد العربي الخطيب: 51.

¹³⁴ - محمد العربي الخطيب: 60.

¹³⁵ - ترجمته في: إسعاف الراغبين، لمحمد بن الفاطمي ابن الحاج السلمي (1413 هـ) ص: 201 -

205.

¹³⁶ - مجلة الإرشاد الديني: ع. 1. س. 1357 - 1939. ص. الثانية للغلاف.

¹³⁷ - ترجمته في: تنمة الأعلام للزركلي، لمحمد خير رمضان يوسف. دار ابن حزم. بيروت. 1418 هـ 1998م. ج. 2/ 55 - 56.

السلفية الوهابية، أيام الحرب العالمية الثانية، في نفس الشيخ الخطيب، وطبيعة العلاقة التي يمكن أن تكون قد جمعت بينهما. فمن المؤكد أن علاقة صداقة قد جمعت بينهما، وأنهما كانا يتزاوران. بيد أن الشيخ الهلالي لم يذكره قط بخير أو بشر في كتابه، الدعوة إلى الله في أقطار مختلفة، الذي أسهب فيه إسهاباً في وصف حركته بتطوان، وذم علمائها، والقدح فيهم، وإثبات ما هجاهم به من شعر، واقتصد فيه اقتصاداً في التنويه بمن اتبعه أو ناصره من أهل تطوان في نشاطه الديني.

كما نتساءل عن موقفه من الحافظ أحمد ابن الصديق، الذي جعل طنجة مقراً لنشاطه ودعوته.

ولا شك في أن نشر هذه المذكرات التي يحتفظ بها ابنه، الأستاذ الداعية السيد إسماعيل، في صورة تقايد، والتي كانت أحد أهم مراجعه في تأليف كتابه عن والده، من شأنه أن يخدم خدمة كبيرة للتاريخ الديني المغربي المعاصر. ولا شك كذلك، في أن نشر ما خلفته النخبة المثقفة التطوانية، أو التي نزلت تطوان، من يوميات ومذكرات، كيوميات الحاج امحمد بنونة، ومحمد داوود، وعبد الخالق الطريس، وتجمع الكتابات الصحفية في دواوين، من شأنه أن يعمل على إنارة طريق مؤرخ المغرب المعاصر، في كل الاتجاهات. والله الموفق.